كريستوفان ابن الكشافة فاسكو دي غاما

لحضرة الاب انطون دا كروز اليسوعي

نشر المشرق في عدد نيسان الاخير (ص ٢٦٤—٢٧٣) خلاصة ترجمة ومآثر ذاك الكشّافة الكبير الذي فتح لوطنه البرتغال بل لاوربّة باسرها طريق الهند بحرًا نعني به فاسكو دي غاما الذي احتفل العالم المتمدّن بتذكار المئة الرابعة لوفاته . ولا بدع فانّ قليلين مثلهُ أدّوا لحضارة العالم وعمرانهِ الخدم الجليلة التي أدّاها بإقدامهِ وشهامتهِ . ويحقّ خصوصاً للكنيسة ان تشكر له فضلهُ كما صرّح بهِ مثل الحبر الاعظم في حفلات لسبونة المنسنيور تدسكيني بقولهِ انهُ هو الذي مكّن كنيسة المسيح منذ اربعمائة سنة ان تقوم بدعوتها وتدعو الى الايمان بالمسيح الشعوب الشرقيّة المتحكمة تحت ظلال الموت

*

على انّ لفاسكو دي غاما اخوين يُدعيان بولس وكريستوفان وولدَين بولس واستفان اشتهروا جميعاً بخدمة وطنهم في الهند حيث اجترحوا من الاعمال الجليلة ما شرّف اسرتهم واضافوا محاسن جديدة الى مفاخر كبيرهم فاسكو دي غاما . فان استفان خلف والدهُ في امارة المستعمرات البورتغاليّة في الهند ومات اخوهُ بولس في محاربة اعداء وطنهِ .

ولعلّ اوسعهم شهرةً واكبرهم عملًا انما كان كريستوفان اخو فاسكو دي غاما . ولذكره خصّصنا هذه الصفحات لقرّاء المشرق ليكرموا في شخصهِ مثال الشهامة في خدمة الوطن وتضحية النفس في سبيل الدين

كان كريستوفان من جملة الذين رافقوا اخاهُ في اسفارهِ من البرتغال الى الهند . وتعيّن هناك بعد وفاة اخيه كحاكم على المستعمرات الهنديّة لكنهُ لم تطل مدّتهُ في هذا المنصب الرفيع فرجع الى البرتغال وتحت امرهِ ٧٢ مركباً

على انهُ ما لبث ان عاد الى الهند فسار مع ابن اخيهِ استفان الذي كان جهّز حملةً لمحاربة اسطول الاتراك في البحر الاحمر سنة ١٥٤١ فانتظر خروج الاسطول من

سويس لكنهُ لم ينل منهُ إلَّا شيئاً يسيراً لخيانة بعض الذين كان عوَّل عليهم من رؤساء مراحل البلاد فعاد باسطوله الى الهند وارسى في مدينة غوا. وكان الحبر الاعظم يوليوس الثالث اجابةً الى طلب النجاشي ملك الحبش داود أصنف صجد ارسل بصفة بطريرك السيد جان يرودس ليدعو الحبشة الى الاتحاد مع الكنيسة الرومانيَّة. فلما وصل البطريرك الى غوا حصل لهُ فيها استقبال شائق لكنهُ بلغتهُ من الحبش اخبار سيئة فان النجاشي كان توفي واقيم ملكاً بعدهُ ابنهُ كلوديوس وهو في مقتبل العمر فاغتنم اعداء الدولة هذه الفرصة فاثاروا الفتن واستدعوا جيشاً من الاتراك الذين اسرعوا فانبثُّوا في جهات الحبش وارتكبوا ضروب الفظائع يقودهم رجلٌ من دُهاة قوَّادهم يدعى احمد جراد اليماري ويدعوهُ البرتغاليُّون باسم (Grogne) وينسبون اليهِ حريق البلاد ونهبها وسبي اهلها وانتهاك حرمة اقداسها وتدمير كنائسها فارسل كلوديوس يطلب الى البطريرك بان يسعى لدى حاكم الهند ليبعث نجدةً ليقوموا في وجه الاتراك ويعيدوا للبلاد سلامها

فاستدعى استفان عمه كريستوفان وانتدبهُ لهذه المهمَّة فلبَّى الى دعوتهِ بطيب الخاطر وسار الى الحبشة مع ٤٠٠ مقاتل وذخائر حربيَّة. فما احتلَّ السيد البطريرك والقائد كريستوفان وجندهُ ارض الحبشة حتى خرج اليهم اهلها يتقدَّمهم ارباب الدين مع الصليب المقدَّس يرحبون بهم ويباركونهم ويشكرونهم بذرف دموع الفرح لمجيئهم الى خلاصهم من ظلم الاتراك. وكان كريستوفان دي غاما يهدئ روعهم ويحثُّهم على الثقة بالله الذي بنعمتهِ ينالون النجاة

*

من لنا ان نصف ما اتاهُ دي غاما من الاعمال الشريفة والمآثر المنيفة مع عسكرهِ فانَّهم مع قلَّة عددهم ساروا الى محاربة الاتراك فاحتلُّوا عنوةً حصنين حريزين يُدعيان «انباكنه وقلعة اليهودي» كان العدوّ تحصَّن فيهما ثم ناجزوهم القتال في ساحة الحرب وغلبوهم دفعتين فكسروا شوكتهم. وكان كريستوفان ينقضُّ عليهم انقضاض النسور على بُغاث الطير وهو دائماً في مقدَّمة الجنود وفي كلّ مقام خطر لا يبالي بما يصيبهُ من سهام العدى. فكان مثلهُ يجتذب اولئك الفرسان فيحذون حذوهُ ويبيعون النفس والنفيس في سبيل مرضاتهِ وصون حياتهِ التي كان يجود بها

رخيصةً حتى نسبهُ البعض الى التهوُّر وقلة الفطنة

ولمَّا اخبرهُ جنودهُ انَّ أحمد جراد رئيس الاتراك لما عرف ان عددهم لم يتجاوز ٣٥٠ رجلًا استعدَّ لمعركة كبيرة جمع لها ١٦،٠٠٠ من جنودهِ ثم ارسل الى كريستوفان ساعياً يدعوهم الى البراز. فسُرَّ القائد البطل بهذه الدعوة ونفح الساعي بهبة لفرحهِ بهذا النبأ وارسل الى احمد مرآةً وبعض عطور يشير بها الى انهم ليسوا برجال حرب بل اشبه بالنسوة الضعاف. ثمَّ زحف بفرقتهِ اليهم وبدَّد شملهم شذر مذر

وان سأل السائل أنَّى كان لكريستوفان مثل هذه القوَّة الغريبة اجبنا انَّهُ كان يستمدُّ بأسهُ من ايمانهِ الحيّ فكان يذكر المكابيين وقوَّادَ بني اسرائيل الذين أيدهم الله بقوَّة علويَّة فانتصروا على جيوش كبيرة بعدد قليل من انصارهم

فتسلَّح بايمانهِ هذا ولم يألُ جهداً في تعزيز النصرانيَّة في بلاد الحبشة. فأمر بتشييد ما دمَّرهُ الاتراك من الكنائس وقوَّى عزائم الحبشة فتحمَّسوا للدفاع عن دينهم. وايمانهِ المذكور بعث في قلوب جنودهِ مِلءَ الثقة فكان يخطب فيهم قبل المواقع الدمويَّة التي يسيرون اليها ويعرض عليهم صليب الربّ فيسجدون لهُ ثمَّ ينازلون العدوَّ كأسود لا يقوم في وجههما قائم ولا يقوى على قهرها مصارع يعتبرون الموت فوز واستشهاد في الدفاع عن الايمان. وذلك ما سندهم في فتح حصن «انبا كنه» الذي كان امتنع من وكر العقاب صعدوا اليهِ بعد سجودهم للصليب وتلاوتهم هذه الصلاة: «هَبْنا يا ربّ عونك لنحارب اعداءك واعداءنا فانَّنا نقدِّم لك نفوسنا وحياتنا مستعدّين الى تضحيتها في سبيل ايماننا المقدَّس»

ثمَّ اتى العدوُّ بقوَّات جديدة لمحاربة هؤلاء الابطال واغار البرتغاليين بما ينتظرهم من الاهوال ودعاهم الى المسالمة قبل ان يسحقهم بعددهِ ومددهِ. فكان جواب كريستوفان وذويهِ كما في السابق انَّ املهم بالله فلا شيء يثنيهم عن محاربة اعداء الصليب. ثمَّ قضوا ليلهم بالصلاة وتناولوا الاسرار المقدَّسة وقبلوا بركة الكاهن ومشوا غير هيَّابين الى تلك المعركة التي كان العدوّ يعدّها قاضيةً فردُّوهم خائبين وكبَّدوهم خسائر فادحة

على انَّ كريستوفان في تلك الموقعة الحافلة أُصيب بجرح مؤلم برصاصة نفذت في ساقهِ وجُرحت يدهُ اليسرى فبقي ثابتاً في مكافحتهِ الى ان فاز بهم جندهُ. ثمَّ اخذ

يعالج جرحى عسكره ولم يفكر في مداواة ساقه ويده حتى انتهى من علاج جنوده وكان يعطف عليهم ويعزيهم ولا يكاد يذكر آلامه المبرّحة

*

رجع العدوّ القهقرى وانما استحوذ على رئيسهم الخجل وتنمّر من الغيظ اذ رأى فئة من الرجال معدودة لا يثبت امامها جيشهُ العرمرمي فأقسم بالله انهُ لا بُدَّ لهُ من الفوز الى ان يستأصل شأفتهم

وكانَّ الله اراد ان يخوّل عبدهُ نعمة الاستشهاد وهو يلتمسها ليقدّم نفسهُ لهُ تعالى كضحيّة يتنسّمها برائحة الرضى

كانت هذه المواقع السابق ذكرها حارب فيها البورتغاليّون قبل ان تجتمع اليهم جنود ملك الحبشة كلوديوس فقلّ عددهم ولم يبقَ منهم بعد من الاربعمائة سوى ٢٥٠ جنديًا . ومع قلة هذا العدد لم يشأ كريستوفان ان يكفَّ عن القتال بل حاول ان ينتزع من ايدي الاتراك حصنًا حريزًا جمعوا فيه قواهم وذخائرهم فترك في المعسكر قسمًا من جنوده واختار منهم خمسين فتوغّل معهم القلعة التي كان الحصن مشيّدًا عليها فبلغها وكان يدافع عنها الفان من الجند التركي بينهم اربعمائة من الفرسان فصدّهم القتال وفتح الحصن عنوةً وحاول الرجوع الى المعسكر

إلّا انَّ الاتراك انتهزوا فرصة غيبته عن المعسكر ليحملوا على الباقين فيه وكان بينهم المرضى والجرحى فباغتوهم وأعملوا السيف فيهم ففرَّ بعضهم ونجا من الجرحى رجلان كانت كُسرت سوقهما فزحفا مختفيين الى مستودع البارود واضرما فيه النار فماتا موت الابطال مع الاتراك الداخلين المعسكر

فاستدلَّ كريستوفان على الخطر اللاحق بذويه واسرع لينقذهم من ايدي العدوّ فاحدق به جند من الاتراك فاخذ يدافع عن نفسه بسيفه بشماله لكسر أصيبت بيمناه وكاد العدوّ يأسرهُ فعمد اليه رفقتهُ وحملوهُ مرغومًا واركبوهُ بغلًا وساروا به بعيدًا عن ساحة الوغى ومشوا بين الادغال والصخور وقفروا ليلتهم تائهين فدرى الاتراك بأمرهم وارسل احمد جراد سريّة من عسكره وراءهُ حتى ادركوهُ وقادوهُ كأسير الى رئيسهم مع ١٣ من رفقته

أدخل كريستوفان مغلّلًا على زعيم الاتراك فأمر للحال بان يُجرَّد من ثيابه وتُربط

يداهُ وراء ظهرهِ ثم جلدوهُ جلداً عنيفاً ولطموهُ باحذية العبيد وساقوهُ الى مضارب الضبّاط وعلى رأسهِ بُرنسٌ فاوسعوهُ ضرباً وشتماً ثمَّ اضرموا النار بلحيتهِ ونتفوا شعر رأسهِ وحواجبهِ واهداب عينيهِ . وكان كريستوفان في شدّة آلامهِ صامتاً جامداً كانهُ لا يشعر بالوجع وانما كان يرفع ببصره الى السماء يلتمس من الله الصفح عن ذنوبهِ وشاكراً لهُ تعالى عن تلك النعمة التي توّهله ببعض الشبه بمخلصهِ

ثم طلب منهُ احمد جواد ان يدلّهُ على رفقتهِ الذين تفرّقوا فاجابهُ كريستوفان : لو عرضتَ عليَّ كلَّ مال الاتراك وثروتهم لما كشفتُ عن سرّهم فاصنع بي ما تشاء ما دمتُ في حوزتك . وكان آخر ما عرضهُ احمد على دي غاما ان يطلق سراحهُ ان شاء أن يدين بالاسلام . فنفر كريستوفان من قولهِ هذا كارهاً وأعلن بايمانهِ جهاراً وقال : «اعلم أننا نحن البرتغاليين نعدّ ديننا أثمن كنوزنا ونضحّي في سبيلهِ كل شيء حتى حياتنا» . قال هذا بتحمّس غير هيّاب فاستشاط احمد غيظاً وضربهُ بسيفهِ فقطع رأسهُ وبدّد اعضاءهُ فمات دي غاما موت الشهداء

على انَّ الله انتقم لعبدهِ بعد قليل فانَّ جنود الجيش الذين كان البرتغاليون ينتظرونهم ليحاربوا معهم الاتراك ووعدهم بهم الملك كلوديوس وصلوا اخيراً فانضمَّ اليهم البرتغاليون الذين نجوا من ايدي الاتراك متفرّقين في الجبال فاستعدّوا لمعركة عظيمة وجعلوا في مقدّمتهم رايةً تمثل صورة العذراء مريم بعد ان خصّصوا نفوسهم لاكرامها . وكان ذكر موت كريستوفان اعظم باعثٍ استفزّهم للقتال ليأخذوا بثار قائدهم فكرّوا على الاتراك لا يلوون على شيء . وساروا توًّا الى قلب جيشهم ليفتكوا بزعيمهم فبلغوا اليهِ والتفّوا حولهُ ولم يزالوا يقاتلون من يتصدّى لهم حتى قذفوا الرعب في قلوبهم وتمكنوا من شخص رئيسهم فقتلوهُ واثاروا لقائدهم وارسلوا برأسهِ الى الملك كلوديوس وانقطع بعد موتهِ نظام الاتراك فخرجوا عن الحبشة وعاد السلام لاهلها

اما كريستوفان فشاع منذ ذاك الحين ذكر شهامتهِ وسموّ فضلهِ واخذ مواطنوهُ يكرمونهُ كبطل أمّتهم وكشهيد ايمانهم حتى انهم كانوا يستشفعون به عند الله . وذكروا لهُ عدّة كرامات نالوها بشفاعتهِ منها انَّ البرتغاليين الذين حاربوا الاتراك بعد موتهِ لم يهلك منهم واحدٌ في ميدان الحرب . ومنها ما ذكرهُ الاب جيروم لوبو اليسوعي

في تاريخ الحبش انّ نبأ انجس حيث وقع الشهيد قتيلاً فشفي بمائهِ كثيرون من امراضهم حتى طلبت دولة البرتغال من رومية ان يُنظم في سلك الطوبويين الشهداء. اما الحبش فانهم لم ينسوا فضل كريستوفان وشاعت بينهم مآثرهُ فكانوا يشيدون بذكر اعمالهِ في حياتهِ وينظمونهُ في عداد شهداء الايمان. فمسى ذكرهُ يحيا في قلوبهم في هذه السنة المخصصة بتذكار اخيهِ فاسكو دي غاما فينالوا ببركة استشهادهِ ان يدينوا بدينهِ ويرتدّوا الى الايمان الكاثوليكي ايمان القديسين اثناسيوس وفرومنسيوس رسولي الحبشة فيستنيروا بانوارهِ ويستقوا من مناهلهِ الصافية

سليمان البستاني

نظم فؤاد افرام البستاني احد الاعيان في كتابه المنشأة

القسم الثاني : رجل السياسة

عاد السياسة وهي بكرٌ حرائرُ وشاع عنها الوحة وهي وقاحُ (فوزي المعلوف)

تبدأ حياة البستاني السياسيّة سنة ١٩٠٨ بانتخابه نائباً عن ولاية بيروت في مجلس المبعوثان العثماني . وكان قبل ذلك قد درس اكثر اراضي الدولة لاسيما العراق وبلاد العرب درساً اجتماعياً سياسياً اقتصادياً . وبحث عن المناجم والسلالات وكيفيّة الانتفاع من الريّ وطرق تحسين الزراعة والصناعة والتجارة . هذا عدا عن المعارف الجمّة عن احوال الدولة السياسيّة ونزعات كبار رجالها ممّن عرفهم بنفسه او قرأ مؤلفاتهم او اطّلع على قوانين جمعيّاتهم

١٠ آراؤه

ولم يُعلن الدستور حتى اخذ بكتابة هذه المعلومات المختلفة الجمّة عن احوال تركيا فأبرز كتابهُ في اسرع ما يمكن من الوقت وأسماه عبرة وذكرى او الدولة